وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾
سُورَةُ غَافِرٍ
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
حٰمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ
ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ
إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ
لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ
وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا
فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾
٤٦٧

معانى الكلمات :

حافين : محدقين محيطين .

غافر الذنب : ساتر الذنب .

ذى الطول: ذى الغنى والإنعام والتفضل .

يغررنك : يخدعك .

تقلبهم : تنقلهم .

ليدحضوا : ليبطلوا .

حقت : وجبت .

وقهم : واحفظهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الكون كله يتجه إلى ربه بالحمد فى خشوع واستسلام .

٢ ـ أن نتعرف على مصارع الغابرين .

٣ ـ أن نعلم حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر .

المحتوى التربوى :

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار ، وأنه نزل كلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له ، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل بين الخلائق ؛ ونطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه ـ لله رب العالمين ، بالحمد فى حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

سورة غافر .

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل ، قضية الإيمان والكفر ، قضية الدعوة والتكذيب ، وأخيرًا قضية العلو فى الأرض والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذى يأخذ العالمين المتجبرين ، وعلى العموم ، فإن السورة كلها تبدو وكأنها مطارق تقع على القلب البشرى ، وتؤثر فيه بعنف وقد ترق أحيانا .

وهذه السورة بدأت كسبع سور كلها تبدأ بالحرفين : « حا : ميم » منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف آخر : « عين . سين . قاف » ، وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور ، وأنها إشارة إلى صياغة هذا القرآن منها ، وهو معجز لهم مع تيسير هذه الأحرف لهم ومعرفتهم بها ، وهى أحرف لغتهم التى يتحدثونها ويكتبونها .

وتأتى الإشارة إلى تنزيل الكتاب وهو القرآن من الله ذى العزة والعلم ، فلا يرام جنابه ، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه ، وهو الغافر الذى يغفر ما سلف من الذنب ، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه ، وهو شديد العقاب لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ، وعتا عن أوامر الله وبغى ، وهو صاحب السعة والغنى والخير الكثير المتفضل على عباده ، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ، وله سبحانه الألوهية وحده لا شريك له ولا شبيه ، ولا نظير ، فلا إله غيره ولا رب سواه إليه المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا تتضح صلته تعالى بعباده وصلة عباده به تتضح فى مشاعرهم وتصوراتهم وإدراكهم ، فيعرفون كيف يعاملونه فى يقظة وفى حساسية ، وفى إدراك لما يُغضبه وما يرضيه ...وجاء الإسلام واضحا ناصعا يصل الناس بإلههم الحق، ويعرفهم بصفاته ، ويبصرهم بمشيئته ويعلمهم كيف يتقربون إليه ، وكيف يرجون رحمته ، ويخشون عذابه ، على طريق واضح قاصد مستقيم ... وبعد تقرير تلك الصفات العلوية وتقرير الوحدانية ، يقرر أن هذه الحقائق مسلمة من كل ما فى الوجود ، وكل من فى الوجود ، ففطرة الوجود كله مرتبطة بهذه الحقائق، متصلة بها الاتصال المباشر الذى لا تجادل فيه ولا تماحل، والوجود كله مقتنع بآيات الله الشاهدة بحقيقته ووحدانيته وما من أحد يجادل فيها إلا الذين كفروا وحدهم » .

ويكون الدرس للنذير الذى يرى أن إنذاره لا ينفع فى هؤلاء الكافرين ، ألا يغتر بما هم فيه منع الدنيا ، فالعبرة للعاقبة فى الدنيا والآخرة ، فمهما تقلبوا وتحركوا وملكوا ، واستمتعوا فهم إلى اندحار وهلاك وبوار ، ولقد سبقتهم أقوام وأحزاب على شاكلتهم ، توحى عاقبتهم بعاقبة كل من يقف فى وجه القوة الطاحنة العارمة التى يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله ، فهى قصة

قديمة من عهد نوح ، ومعركة ذات مواقع متشابهة فى كل زمان ، وهذه الآية تصور هذه القصة ، قصة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال كما تصور العاقبة فى كل حال ، رسول يجيء فيكذبه طغاة قومه ، ولا يقفون عند مقارعة الحجة بالحجة ، إنما هم يلجؤون إلى منطق الطغيان الغليظ ، فيهمون أن يبطشوا بالرسول ، ويموهون على الجماهير بالباطل ليغلبوا به الحق ، وهنا تتدخل يد القدرة الباطشة ، فتأخذهم أخذا يعجب ويدهش ، ولقد كان عقابا مدمرًا قاضيا عنيفا شديدا ، ومتى حقت كلمة الله على أحد فقد وقعت وقضى الأمر وبطل كل جدال .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة ، حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، وبين الدعاة إلى الله الواحد والطغاة الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق ... هذه الحقيقة ـ حقيقة المعركة والقوى البارزة فيها ... يصورها القرآن لتستقر فى القلوب ، وليعرفها ـ على وجه خاص ـ أولئك الذين يحملون دعوة الحق والإيمان فى كل زمان ومكان، فلا تتعاظمهم قوة الباطل الظاهرة فى فترة محدودة من الزمان، ورقعة محدودة من المكان، فهذه ليست الحقيقة ، إنما الحقيقة هى التى يصورها لهم كتاب الله ، وتنطق بها كلمة الله ، وهو أصدق القائلين وهو العزيز العليم » .

ويتصل بتلك الحقيقة الأولى أن حملة العرش ومن حوله . وهم من بين القوى المؤمنين فى هذا الوجود ـ يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم ، ويستغفرون لهم ، ويستنجزون وعد الله إياهم ، بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين ونحن لا نعرف ما هو العرش ؟ ولا نملك صورة له ، ولا نعرف كيف يحمله حملته ، ولا كيف يكون من حوله ، وكل ما يتصل بالحقيقة التى يقررها سياق السورة أن عبادا مقربين من الله ، يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، وهم يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخبر ما يدعو به مؤمن لمؤمن ، وهم يبدؤون دعاءهم بأدب يعلمنا كيف يكون أدب الدعاء ، فهم فى طلب الرحمة للناس إنما يستمدون من رحمة الله التى وسعت كل شيء ويحيلون إلى علم الله الذى وسع كل شيء ، فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه ، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ، وزحزحهم عن عذاب الجحيم ، وهو العذاب الموجع الأليم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يختم كل عمل بالحمد لله ، فمنه تستمد القوة ، وله الفضل كله .

٢ ـ بيان أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل وأن بطشه أليم شديد ، فلتقر قلوب المؤمنين .

٣ ـ من أدب الدعاء الثناء على الله عز وجل بما هو أهله .

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ
مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا
فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ
ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ
ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ
لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾
فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾
رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۗ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾
٤٦٨

معانى الكلمات :

تؤمنوا : تذعنوا وتقروا بالشرك .

لمقت الله : لبغضه الشديد غضبه عليكم .

ينيب : يرجع إلى التفكر فى الآيات .

رفيع الدرجات : رافع السموات .

يلقى الروح : ينزل الوحى أو القرآن أو جبريل .

التلاق : الاجتماع فى المحشر .

بارزون : خارجون من القبور .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما يكون من أمر الكافرين يوم القيامة .

٢ ـ أن نتعلم التدبر فى الكون وفى الآيات التى بثها الله فى أنحائه .

٣ ـ أن نؤمن أن الكون وما فيه ملك لله العزيز الجبار .

المحتوى التربوى :

يستمر السياق فى إبراز دعاء الملائكة، فهم يرتقون فى الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين ، ودخول الجنة نعيم وفوز ، يضاف إليه صحبة من صلح من الآباء ، والأزواج والذريات ، وهى نعيم آخر مستقل ، ثم هى مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين ، فعند عقدة الإيمان يلتقى الآباء والأبناء والأزواج ، ولولا هذه العقدة لتقطعت بهم الأسباب ، والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة ، وبها يكون الحكم فى أمر العباد .

وهذه الدعوة بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن ـ لفتة إلى الركيزة الأولى فى الموقف العصيب ، فالسيئات هى التى توبق أصحابها فى الآخرة ، وتوردهم مورد التهلكة ، فإذا وقى الله عباده

المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها ، وكانت هذه هى الرحمة فى ذلك الموقف ، وكانت كذلك أولى خطوات السعادة ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم .

وبينما أن حملة العرش ومن حوله يتجهون إلى ربهم بهذا الدعاء لإخوانهم ، نجد الذين كفروا فى الموقف الذى تتطلع كل نفس فيه إلى المعين وقد عز المعين ، نجد الذين كفروا هؤلاء ـ وقد انبتت العلاقات بينهم وبين كل أحد وكل شىء فى الوجود ، وإذا هم ينادون من كل مكان بالترذيل والمقت والتأنيب ، وإذا هم فى موقف الذلة بعد الاستكبار ، وفى موقف الرجاء ولات حين رجاء .

فهم إذا دخلوا النار ومقتوا أنفسهم فيناديهم خزنة النار لمقت الله عز وجل وبغضه لأنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم ، فالله سبحانه كان يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون قبوله ، وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم فى النار ، إذا وقعتم فيها باتباعكم هواهن .

قال ابن كثير : « يقول تعالى مخبرًا عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة وهم فى غمرات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قِبَل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم ، وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التى كانت سبب دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارًا عاليا ، بأن نادتهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم فى الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون ، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة ، وما أوجع هذا التذكير ، وهذا التأنيب فى ذلك الموقف المرهوب العصيب ، والآن وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال يعرفون أن المتجه لله وحده ، فيتجهون وكانوا من قبل يكفرون وينكرون ، فيقولون : ربنا ، أحييتنا أول مرة فنفخت الروح فى الموات فإذا هو حياة ، وإذا نحن أحياء ، ثم أحييتنا الأخرى بعد موتنا ، فجئنا إليك وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه ، وقد اعترفنا بذنوبنا التى اقترفناها ، فهل إلى نوع من الخروج سريع أو بطىء من النار لنتخلص منها ؟ أم اليأس واقع دون ذلك فلا خروج ولا سبيل إليه ؟

وجاء الجواب من خلال التعليل لبقائهم فى النار بأن الذى أنتم فيه ، ولا سبيل لكم إلى خروج منه قط بسبب كفركم بتوحيد الله ، وإيمانكم بالإشراك به ، فالحكم لله حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدى ، العلى شأنه فلا يرد قضاؤه ، الكبير والعظيم سلطانه فلا يجد جزاؤه .

وفى ظل هذا المشهد يستطرد إلى شىء من صفة الله تناسب موقف الاستعلاء ، ويوجه المؤمنين فى هذا المقام إلى التوجه بالدعاء موحدين مخلصين له الدين ، فآيات الله ترى فى كل شىء فى هذا الوجود ، فى المجال الكبيرة من شمس وكواكب ، وليل ونهار ، ومطر وبرق ورعد ، وفى الدقائق الصغيرة من الذرة والخلية والورقة والزهرة ، وفى كل منها آية خارقة ، تتبدى عظمتها

حين يحاول الإنسان أن يقلدها ـ بل أن ينشئها ـ وهيهات هيهات التقليد الكامل الدقيق ، لأصغر وأبسط ما أبدعته يد الله فى هذا الوجود ، والله تعالى ـ هو الذى ينزل لكم من السماء رزقا وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ، ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله ، وهو ماء واحد ، فيا للقدرة العظيمة جعل المطر سبب الرزق ، وفاوت بين هذه الأشياء ، وما يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء إلا من هو رجاع ثواب إلى الله الذاكر لنعمه العارف لفضله .

وعلى ذكر الإنابة وما تثيره فى القلب من تذكر وتدبر يوجه الله المؤمنين ليدعوا الله وحده ، ويخلصوا له الدين ، غير عابئين بكره الكافرين ، ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ، وأن يدعوه وحده دون سواه ، ولا أمل فى أن يرضوا عن هذا مهما لاطفهم المؤمنون أو هادنوهم ، فليمض المؤمنون فى وجهتهم يدعون ربهم وحده ، ويخلصون له عقيدتهم ، ويصغون له قلوبهم ، ويذكر من صفات الله فى هذا المقام الذى يوجه المؤمنين فيه إلى عبادة الله وحده ولو كره الكافرون ، يذكر من هذه الصفات أنه سبحانه : هو وحده صاحب الرفعة والمقام العالى ، وهو صاحب العرش المسيطر المستعلى ، وهو الذى يلقى أمره المحيى للأرواح والقلوب على من يختاره من عباده ، وهذا كناية عن الوحى بالرسالة على المختارين من العباد التى وظيفتهم هى الإنذار للناس من يوم التلاق ، وفى هذا اليوم يتلاقى البشر جميعا ، ويتلاقى الناس والملائكة والجن ، وجميع الخلائق التى تشهد ذلك اليوم المشهود ، فهو يوم التلاقى بكل معانى التلاقى .

ثم هو اليوم الذى يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ، ولا تزييف ولا خداع ، والله لا يخفى عليه منهم شىء فى كل وقت وفى كل حال ، ولكنهم فى غير هذا اليوم قد يحسبون أنهم مستورون ، وأن أعمالهم وحركاتهم خافية أما اليوم فيعلمون أنهم مفضوحون ، ويومئذ يتضاءل المتكبرون ، وينزوى المتجبرون ، ويقف الوجود كله خاشعا والعباد كلهم خضعا ، ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان ، وهو سبحانه متفرد فى كل آن ، فأما فى هذا اليوم فيتكشف هذا للعيان بعد انكشافه للجنان ، وينطلق صوت الجلال يسأل : ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ وما فى الوجود كله يومئذ من سائل غيره ولا مجيب سبحانه على نفسه : لله الواحد القهار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المعركة بين الحق والباطل مستمرة والنصر فيها للحق وأتباعه دائماً ، وأهل الحق لا يتركون الميدان .

٢ ـ من يحبه الله ويرضى عنه يبعده عن ارتكاب الذنوب ويثبته على الطاعة .

٣ ـ لله وحده الملك فى الدنيا والآخرة .

اَلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ
لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾
وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ
بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ
قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا
وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ
فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ
عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟
نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾
٤٦٩

معانى الكلمات :

كسبت : عملت .

وأنذرهم : وخوفهم .

يوم الآزفة : يوم القيامة .

إذ القلوب لدى الحناجر:أى تبلغ الحناجر.

كاظمين: ممتلئين غما وحسرة لا يتكلمون .

حميم : صديق ينفعهم أو قريب .

واق : حافظ يحفظهم .

واستحيوا نساءهم : أبقوا بناتهم للخدمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أهوال يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه .

٢ ـ أن نعلم سعة علم الله تعالى وأنه لا يخفى عليه شىء .

٣ ـ أن نعرف أن الأخذ بالذنوب سنة من سنن الله تعالى التى لا تتبدل ولا تتحول .

المحتوى التربوى :

لما قرر السياق أن الملك لله وحده فى ذلك اليوم ، عدد نتائج ذلك ، وهى أن كل نفس تجزى بما كسبت وعملت فى الدنيا من خير وشر ، وأن الظلم مأمون منه ؛ لأنه ليس بظلام للعبيد ، وأن الحساب لا يبطئ ؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب ، فيحاسب الخلق كلهم فى وقت واحد وهو أسرع الحاسبين .

ويستطرد السياق يوجه الرسول ﷺ إلى إنذار القوم بذلك اليوم ، فى مشهد من مشاهد القيامة يتفرد فيه الله بالحكم والقضاء ، بعد ما عرضه عليهم فى صورة حكاية لم يوجه لهم فيها الخطاب ، والآزفة : القريبة والعاجلة وهى القيامة ، واللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة ، والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة ، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ، وهم كاظمون

لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم ، وهم لا يجدون حميما يعطف عليهم ولا شفيعًا ذا كلمة تطاع فى هذا الموقف العصيب المكروب .

وهم بارزون فى هذا اليوم لا يخفى على الله منهم شىء ، حتى لفتة العين الخائنة ، وسر الصدر المستور والعين الخائنة تجتهد فى إخفاء خيانتها ، ولكنها لا تخفى على الله ، والسر المستور تخفيه الصدور، ولكنه مكشوف لعلم الله ، والله وحده هو الذى يقضى فى هذا اليوم قضاءه الحق ، وآلهتهم المدعاة لا شأن لها ولا حكم ولا قضاء ، والله يقضى بالحق عن علم وعن خبرة ، وعن سمع وعن رؤية ، فلا يظلم أحدًا ولا ينسى شيئًا .

يقول الفخر الرازى : « إنه تعالى ذكر فى هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف :

فأولها : إنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة ، أى يوم القرب من عذابه لمن ابتلى بالذنب العظيم ؛ لأنه من عاين تلك إذا قرب زمان عقوبته كان فى أقصى غايات الخوف ، حتى قيل : إن تلك الغموم والهموم أعظم الإيحاش من عين تلك العقوبة .

والثانى : قوله : ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ والمعنى : إنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها ، وصار مانعا من دخول النفس .

والثالث : قوله : ﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ والمعنى : إنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب .

والرابع : قوله : ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فبين أنه ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته .

والخامس : قوله : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، والحاكم إذا بلغ فى العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدًا جديدًا ... وأما أفعال القلوب فهى معلومة لله تعالى ...

والسادس : قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ وهذا أيضا يوجب عظم الخوف ؛ لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال ، وثبت أنه لا يقضى إلا بالحق فى كل ما دق وجل ، كان خوف المذنب منه فى الغاية القصوى .

السابع : إن الكفار إنما عولوا فى دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام ؛ وقد بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة ، فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ .

الثامن : قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أى يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله،ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم

لله ، فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت فى حق المذنب الذى عظم ذنبه كان بالغا فى التخويف إلى الحد الذى لا تعقل الزيادة عليه » .

ثم يقص علينا الله عز وجل قصة من قصص السابقين كيف كانوا أشد قوة وآثاراً ، وكيف كذبوا رسل الله ، وكيف كانت عاقبتهم ، وكيف كان عقابهم شديدا ، هذه القصة قصة فرعون ، وذكر قصة فرعون فى هذا السياق له دلالته ؛ إذ الفراعنة كانوا أشد قوة وآثارًا فى الأرض كما هو مشهور .

يقول صاحب الظلال : « هذا المعبر بين قصة موسى عليه السلام وموضوع السورة قبلها يذكر المجادلين فى آيات الله من مشركى العرب بعبرة التاريخ قبلهم ، ورؤية مصارع الغابرين الذين وقفوا موقفهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض ، ولكنهم ـ مع هذه القوة والعمارة ـ كانوا ضعافا أمام بأس الله ، وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوة الحقيقية ، وتستعدى عليهم قوى الإيمان ومعها قوة الله العزيز القهار: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ ولا واقى إلا الإيمان والعمل الصالح والوقوف فى جبهة الإيمان والحق والصلاح » .

ويذكر السياق القرآنى علة الأخذ بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات، فكفروا مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا فأهلكهم الله ودمرهم ، فهو صاحب قوة عظيمة وبطش شديد ، وعقابه أليم شديد موجع إذا عاقب .

وبعد هذا تبدأ من موقف عرض الرسالة على فرعون وملئه ، وتنتهى هنالك فى الآخرة وهم يتحاجون فى النار ، وهى رحلة مديدة ، ولكن السياق يختار لقطات معينة من هذه الرحلة هى التى تؤدى الغرض ، فهذا هو موقف اللقاء الأول ؛ موسى ومعه آيات الله ، ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذى بيده ، وفرعون وهامان وقارون ومعهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذى يخافون عليه من مواجهة الحق ذى السلطان ، عندئذ لجؤوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق : ﴿ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ، ويعرض الموقف التالى : فلما جاءهم بالبرهان القاطع الدال على أن الله أرسله إليهم ، أمروا بقتل أبناء المؤمنين واستحياء نسائهم للخدمة ، وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل ، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى ، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ، وأما الأمر الثانى فللعلة الثانية ولإهانة هذا الشعب ، وما كيد الكافرين إلا فى ضياع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ـ كل ما فى الوجود يدعو الإنسان إلى التفكير فى نفسه وفيما حوله من مخلوقات الله ؛ ليقوى إيمانه .

٢ ـ الحث على السير فى الأرض للاعتبار بما حدث للسابقين .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ
ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى
يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ
لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ
بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ
أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾
وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ
مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾
٤٧٠

معانى الكلمات :

ذرونى : اتركونى .

وليدع ربه : وليناد ربه .

عذت بربى : احتميت به .

بالبينات : بالمعجزات الظاهرة .

مسرف : مجاوز للحد .

ظاهرين : غالبين عالين .

دأب : عادة .

يوم التناد : يوم القيامة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التهديد بالقتل شنشنة الجبارين والطغاة فى العالم .

٢ ـ أن نؤمن أن الله سبحانه هو ملاذ المستضعفين من كل خوف .

٣ ـ أن نتعلم كيف تكون الإيجابية من مؤمن آل فرعون .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق القرآنى أن فرعون قال لملئه : دعونى أقتل موسى ، وهذا عزم من فرعون عليه لعائن الله ، فترى على قتل موسى عليه السلام ، وليدع ربه فإنى لا أبالى منه ، وهذا فى غاية الجهل والتجهرم والعناد ، إنى أخاف أن يغير ما أنتم عليه ، وأن يظهر موسى فى الأرض التقاتل والتهايج والفوضى ، بحيث يذهب معه الأمن ، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش ، ويهلك الناس قتلا وضياعا ، كأنه قال : إنى أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه ، أو يفسد عليكم دنياكم ، بما يظهر من الفتن بسببه ، ويخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم ، وهذا كما يقال فى المثل : صار فرعون واعظا يشفق على الناس من موسى عليه السلام وأما موسى عليه السلام فالتجأ إلى الركن الركين والحصن الحصين ولاذ بالجناب الذى يحمى اللائذين ويجير

المستجيرين ، وسلم أمره إلى المستعلى على كل متكبر ، القاهر لكل متجبر ، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين .

قال الفخر الرازى : « واعلم أن الكلمات التى ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد :

الفائدة الأولى : إن لفظة ﴿ إِنِّي ﴾ تدل على التأكيد فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر فى دفع الشرور والآفات عن النفس : الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى .

الفائدة الثانية : إنه قال : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ ... فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن ، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم : أعوذ بالله ، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات .

الفائدة الثالثة : قوله : ﴿ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ والمعنى : كأن العبد يقول : إن الله سبحانه هو الذى ربانى ، وإلى درجات الخير رقانى ، ومن الآفات وقانى ، وأعطانى نعما لاحد لها ولا حصر ، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب ألا يرجع العاقل فى دفع كل الآفات والمخالفات إلا إلى حفظ الله تعالى .

الفائدة الرابعة : إن قوله : ﴿ وَرَبِّكُم ﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام أن يقتدوا به فى الاستعاذة بالله ، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوى ذلك التأثير جداً ، وذلك هو السبب الأصل فى أداء الصلوات فى الجماعات .

الفائدة الخامسة : إنه لم يذكر فرعون فى هذا الدعاء ؛ لأنه قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه ، فترك التعيين رعاية لذلك الحق .

الفائدة السادسة : إن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة فى الدعاء على فرعون بعينه ؛ بل الأولى الاستعاذة بالله فى دفع كل من كان موصوفا بتلك الصفة ، حتى يدخل فيه كل من كان عدوّا سواء كان مظهرا لتلك العداوة أو كان مخفيا لها .

الفائدة السابعة : إن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران : أحدهما : كون الإنسان متكبرًا قاسى القلب ، والثانى : كونه منكرًا للبعث والقيامة .... » .

ثم يذكر السياق : أن رجلا من آل فرعون وقع الحق فى قلبه ولكنه كتم إيمانه انتدب يدفع عن موسى ، ويحتال لدفع القوم عنه ، إنه يبدأ بتفظيع ما هم مقدمون عليه ، فهل هذه الكلمة البريئة ﴿ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ المتعلقة باعتقاد قلب واقتناع نفس ، تستحق القتل ، ويرد عليها بإزهاق روح ؟ إنها فى هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة ، ثم يخطو بهم خطوة أخرى ، فالذى يقول هذه الكلمة البريئة : ﴿ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ ويقولها ومعه حجته وليس حجة واحدة بل حجج كثيرة من الله، وقد جاءكم بها ، فإن يك كاذبا ولم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل والرأى

التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه فإن يك كاذبًا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقًا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم فإن يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا ، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه ولو كان مسرفا كذابا لخذله الله وأهلكه.

ثم يذكرهم هذا المؤمن بأن الله أنعم عليهم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق نبيه ﷺ ، واحذروا نقمة الله أن كذبتم رسوله ، فلن تغنى هذه الجنود ، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أرادنا بسوء ، وقال فرعون رادا على هذا المؤمن : ما أشير عليكم برأى إلا بما أرى من قتله ، وما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أدخر منه شيئا وهذا طريق الصواب والصلاح .

وقال الذى آمن متابعا دفاعه عن موسى : الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة ، كيف حل بهم بأس الله ، وما رده الله عنهم راد ، وما الله يريد أن يظلم عباد ه فيعذبهم بغير ذنب أو يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب ، ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار ، وإذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ، فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ، ينادى بعضهم بعضا أو إذا جىء بجهنم ذهب الناس هربا منها ، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر ؛ أو لأن الميزان عنده ملك ، إذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته : ألا قد سعد فلان ابن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف عمله نادى ألا قد شقى فلان ابن فلان وينادى كل قوم بأعمالهم ، ينادى أهل الجنة أهل الجنة ، وأهل النار أهل النار ، أو لمناداة أهل النار أهل الجنة ، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار .

ويحذر المؤمن قومه هذا اليوم الذى يولون الفرار فيه ، ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار ، ومن أضله الله فلا هادى له ، والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ نصر الله تعالى لرسله والمؤمنين ليس فى فترة زمنية محددة ، وإنما هو نصر ثابت لكن فى الوقت الذى يريده الله.

٢ ـ ضرورة الإخلاص فى النصيحة والرفق بمن تنصحه .

٣ ـ مسؤولية الإنسان عن نفسه ، وعن أهله ، وعن مجتمعه الذى يعيش فيه .

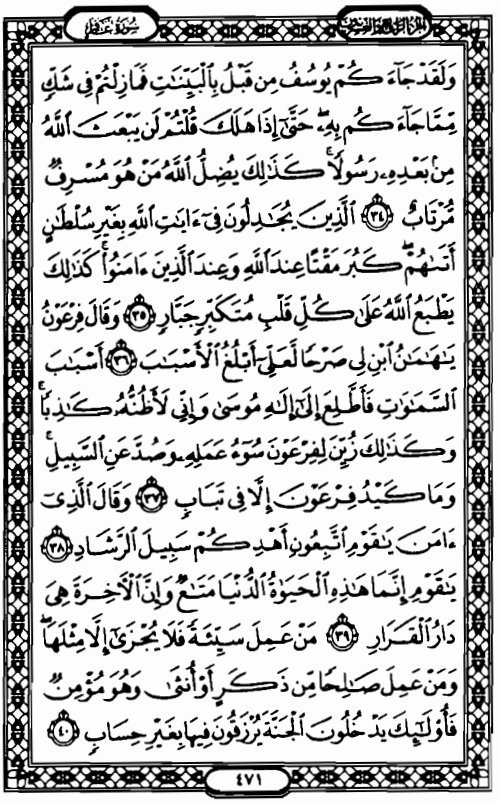
وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ
مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ
مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ
أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ
ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ
دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾
٤٧١

معانى الكلمات :

هلك : مات .

مرتاب : شاك فى الدين .

سلطان : برهان .

يطبع : يختم بالضلال .

صرحا : بناء مرتفعا .

الأسباب : طرق السموات والأرض وما يؤدى إليها .

تباب : خسران وهلاك .

دار القرار : محل الاستقرار .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف مذمة الله تعالى للمجادلين بغير سلطان وحجة .

٢ ـ أن نعلم سوء عاقبة المتكبرين .

٣ ـ أن نتعلم أهمية التذكير بالحساب والجزاء وما يتم فى الدار الآخرة من سعادة وشقاء .

المحتوى التربوى :

يذكر مؤمن آل فرعون قومه بموقفهم من يوسف ، ومن ذريته كان موسى ـ عليهما السلام ـ وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته ، وما جاءهم به من الآيات ، فلا يكرروا الموقف من موسى ، وهو يصدق ما جاءهم به يوسف ، فكانوا فى شك وارتياب ، ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولا ، وها هو ذا موسى يجىء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال ، وهذه هى المرة الوحيدة فى القرآن التى يشار فيها إلى رسالة يوسف عليه السلام للقوم فى مصر ، والرجل المؤمن يشتد هنا وهو يشير إلى هذا الارتياب والإسراف فى التكذيب ،فينذرهم بإضلال الله الذى ينتظر كل مسرف مرتاب فى عقيدته ، وقد جاءته معها البينات .

ثم يشتد فى مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل فى آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يفعلون هذا فى أبشع صورة ، وينذر بالتكبر والتجبر ، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين

المتجبرين ، فالذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى ، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ، ويبغضهم أشد البغض ، والمؤمنون أيضا يبغضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا ، ولا ينكر منكراً ، ومثل هذا الطبع يطبع به الله على كل قلب متكبر على الحق جبار على خلق الله ، وإنما وصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما .

ويبدو أنه على أثر هذا الدفاع الحار عن موسى عليه السلام ، وعلى أثر هذا الوعظ الشديد ، أقلع فرعون عن قتل موسى ، فخاطب وزيره من أجل أن يبنى له صرحا يطلع إلى إله موسى عليه السلام ، وبذلك أشعر يصرف النظر ، وأراد أن يغطى ذلك بهذا الطلب دون أن يعترف أنه كان مخطئا فى تفكيره فى قتل موسى عليه السلام ، ودون أن يعلن انصرافه عن هذا القتل ، وقال فرعون جهلا أو تمويعًا أو تغطية أو انصرافا عما كان فيه ، أو إنهاء لكلام مؤمن آل فرعون : ياهامان ابن لى قصراً عاليا منيعا شاهقا لعلى أصل إلى طرق السموات وأبوابها ، وما يؤدى إليها ؛ إذ كل ما أدّاك إلى شىء فهو سبب ، فأطلع إلى إله موسى وأنظر إليه وإنى لأظن موسى كاذبا فى قوله له إله غيرى ، أو فى وجود إله غيرى ، ومثل ذلك التزيين الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه السلام ، وصد عن السبيل المستقيم ، وما كيد فرعون إلا فى خسار وهلاك .

قال صاحب الأساس : « وهذه بشارة لأهل الإيمان أن يطمئنوا إلى العاقبة ، وأن يعرفوا أن أعداء الله ليسوا على شىء مهما علا سلطانهم وامتد بغيهم هذا فى الدنيا ، وما عند الله أشد ، وفى الحديث : « ما من إمام يموت ـ يوم يموت ـ وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » .

وأمام هذه المراوغة ، وهذا الاستهتار ، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة ، بعدما دعا القوم إلى اتباعه فى الطريق إلى الله ، وهو طريق الرشاد ، وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة ، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية ، وحذرهم عذاب الآخرة ؛ وبين لهم ما فى عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان ، فقال المؤمن معيداً نصيحته لقومه :﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ،لا كما كذب فرعون تعريض عندما قال : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ شبيه بالتصريح ، أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغى .

وبعد أن أجمل فى دعوته فسر ؛ فافتتح بذم الدنيا فزهدهم فيها، وهى التى قد آثروها على الأخرى ، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه السلام ، وفى ذلك إشارة إلى أن بداية الرشاد وطريقه هو الزهد فى الدنيا ، ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ متاع زائل لا ثبات له ولا دوام ، فهى قليلة فانية ، عن قريب تذهب وتضمحل ، والمتاع هو ما فيه تمتيع يسير ، فالإخلاد إلى الدنيا أصل الشر ، ومنبع الفتن .

وبعد أن حقر الدنيا ثنى بتعظيم الآخرة ، وبين أنها هى الوطن والمستقر ، فقال : إنها الدار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا ظعن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ومن ثم

عقب بذكر الأعمال سيئها وحسنها ، وعاقبة كل منها ليثبط عما يتلف ، وينشط لما يزلف ، فقال : إن الحساب سريع ، وأن من عمل صالحا من الأعمال الصالحة التى شرعها الله لعباده وتعبدهم بها ، والحال أنه مؤمن مصدق بالله وبوعده ووعيده يوم لقائه ، فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات يدخلون الجنة دار السلام يرزقون فيه رزقا واسعا لا يلحق صاحبه تبعة ولا تعب ولا نصب .

وفى قصة مؤمن آل فرعون وحواره مع قومه ما يمكن أن يهتدى به كل من يريد أن يقدم النصيحة للآخرين ، وكل من يدعو غيره إلى خير ، ومن ذلك :

أ ـ إقناعهم بوجهة نظره بالحجة الواضحة والبرهان القاطع .

ب ـ أن يكون لينا حكيما متبعا لأحسن الطرق فى النصح والإرشاد .

جـ ـ ألا يظهر التعالى والتعاظم على من ينصحه .

د ـ أن يبين لمن ينصحهم أنه واحد منهم ينفعه ما ينفعهم ، ويضره ما يضرهم .

هـ ـ أن يضرب لمن ينصحه الأمثلة التى توضح لهم ما يريده منهم ، وأن تكون قريبة من أفهامهم .

و ـ أن يذكرهم باليوم الآخر وما يكون فيه من ثواب للطائعين ، وعقاب للعاصين ، كما يذكرهم بفضل الله تعالى ورحمته وعدله .

ز ـ وأن يتدرج معهم فى النصيحة آخذاً بأيديهم ، مستميلا قلوبهم .

ح ـ ثم يركز النصيحة مع التخويف والإنذار ، ويفوض أمره بعد ذلك إلى الله متوكلا عليه ، تاركا له تبارك وتعالى هداية من يشاء من عباده .

هذا الصبر الطويل والنفس الجهيد ، والفكر السديد والعمل الرشيد ، والأمل الندى الذى يشف عنه التعبير القرآنى الصادر عن المؤمن مع قوم سادرين فى كفرهم وعنادهم ، متشبثين بمألوفهم وما عليه درجوا ، وهو فى موضع غير المحسود ، وقد كشف أمره ، وانزاح ستاره ، وعذابه قد اقترب وما نظر إلا إلى حق ربه ونصرة عبده ، فهو يؤدى النصيحة لقوم كافرين ويصبر عليهم ، ونحن أولى بنا أن نصبر على من هم إخواننا من بنى جلدتنا ، ونلتزم التزمه المؤمن من علو أدب وسمو عرض وطلب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المسلم لا ينزع قوس النصيحة من يده أبدا ، فهو مسؤول عن إرشاد الناس .

٢ ـ على أهل الإيمان أن يتيقنوا أن العاقبة لهم والجنة مصيرهم وفضل الله عظيم .

٣ ـ الإخلاد إلى الدنيا أصل الشر ومنبع الفتن ، فعليك النظر إلى النعيم الدائم .

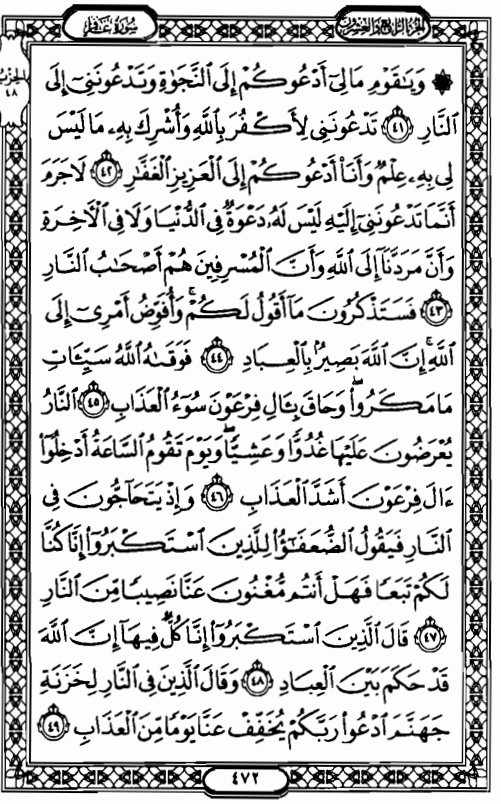

وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

معانى الكلمات :

لا جرم : حق وثبت أو لا محالة أو حقًا .

المسرفين : كل من تجاوز الحد فى الضلال والطغيان .

وحاق : نزل وأحاط .

غدواً وعشيا : صباحا ومساء .

يتحاجون : يلوم بعضهم بعضا .

الضعفاء : الأتباع المرؤوسون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على الفرق الكبير بين من يدعو إلى النجاة ومن يدعو إلى النار .

٢ ـ أن نؤمن بعذاب القبر ونعيمه .

٣ ـ أن نعلم حقيقة الكبر والاستكبار ومدى إعاقته عن الاستقامة .

المحتوى التربوى :

ما زال مؤمن آل فرعون يكرر دعاءهم إلى الله وصرح بإيمانه ، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم ، وأنه إنما تصدى للتذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقوله الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه ، فقال : أخبرونى عنكم كيف هذه الحال ؛ أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة بالإيمان بالله وإجابة رسله ، وتدعوننى إلى النار بما تريدونه منى من الشرك ؟

وهم لم يدعوه إلى النار ، إنما دعوه إلى الشرك ، وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار ؟ إنها قريب من قريب ، فهو يبدل الدعوة بالدعوة فى تعبيره ، وشتان بين دعوة ودعوة ، إن

دعوته لهم واضحة مستقيمة ، إنه يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره فى الوجود بوحدانيته وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره ، يدعوهم ليغفر لهم ، وهو القادر على أن يغفر ، الذى تفضل بالغفران ، فإلى أى شىء يدعونه ؟ يدعونه للكفر بالله عن طريق الإشراك ما لا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز .

ويقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شىء ، وليس لهم شأن لا فى دنيا ولا فى آخرة ، وأن المرد لله وحده ، وأن المسرفين المتجاوزين للحد فى الادعاء سيكونون أهل النار ، وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية فى العقيدة ؟ وقد جهر بها الرجل فى مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم ، بعد أن كان يكتم إيمانه ، فأعلن عنه هذا الإعلان ؟ لا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله ، وقد قال كلمة وأراح ضميره ، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه فى موقف لا تنفع فيه الذكرى، والأمر كله إلى الله ، وينتهى الجدل والحوار، وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمته الحق خالدة فى ضمير الزمان .

ويحمل السياق حلقة القصة بعد هذا ، وما كان بين موسى وفرعون وبنى إسرائيل إلى موقف الغرق والنجاة ، ويقف ليسجل « لقطات» بعد هذا الموقف الأخير وبعد الحياة ، لقد طويت الدنيا ، وعرضت أول صفحة بعدها ، فإذا الرجل المؤمن الذى قال كلمة الحق ومضى ، قد وقى الله القوى الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق ، عقوبات ما مكر فرعون وآله له ، من إرادة إهلاكه وإتلافه ؛ لأنه ناداهم بما يكرهون ، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام ، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى ، وهذا أمر لا يحتملونه ، وهم أصحاب الذين القدرة إذ ذاك ، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه ، فأرادوا به كيدا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم ، فلم يصبه من آثارها شىء فى الدنيا ، ولا فيما بعدها أيضاً ، بينما نزل بآل فرعون سوء العذاب ، وهو الغرق فى اليم ، ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار ، ولهذا قال : ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾ ففى هذين الوقتين يعذبون فى النار ، وفيما بين ذلك ، إما أن يعذبوا بجنس آخر ، أو ينفس عنهم ، ويجوز أن يكون المراد بذلك الدوام .

قال ابن كثير : « وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور ، روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إلى يوم القيامة » أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك به . وعندما تقوم الساعة يقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ألما وأعظمه نكالا .

ولما كان آل فرعون أتباعا ومتبوعين فإن الله عز وجل يقص علينا خصومة أهل النار مع بعضهم وذلك فى يوم القيامة ، والسياق يلتقط لهم موقفا وهم يتحاجون فيها ، فيقول الضعفاء وهم الأتباع لرؤسائهم وهم المستكبرون : إنا كنا لكم أتباعا أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال ، فهل أنتم دافعون عنا جزءًا من هذه النار ، فقال الذين استكبروا إنا كلنا فيها لا يغنى أحد عن أحد ، ولا نتحمل عنكم شيئا كفى بنا ما عندنا ، وما حملنا من العذاب والنكال ، فإن الله قد قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا .

يقول صاحب الظلال : « إن الضعفاء إذن فى النار مع الذين استكبروا ، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولا وإمعات ، ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تساق ، لا رأى لهم ولا إرادة ولا اختيار ، لقد منحهم الله الكرامة ، كرامة الإنسانية ، وكرامة التبعة الفردية ، وكرامة الاختيار والحرية ، ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعا ، تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية .

لم يقولوا لهم : لا ، بل لم يفكروا فى أن يقولوها ، بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيعاً لهم عند الله ،فهم فى النار، ساقهم إليها قادتهم ، كما كانوا يسوقونهم فى الحياة سوق الشياة ، ثم هاهم أولاء يسألون كبراءهم : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ، كما كانوا يوهمونهم فى الأرض أنهم يقودونهم فى طريق الرشاد ، وأنهم يحمونهم من الفساد ، وأنهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء .

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدراً بالذين استضعفوا ، ويجيبونهم فى ضيق وبرم وملالة ، وفى إقرار بعد الاستكبار إنا كل ضعاف لا نجد ناصرًا ولا معينا ، إنا كل فى هذا الكرب والضيق سواء ، فما سؤالكم لكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء ؟ والله قد حكم بين العباد فلا مجال لمراجعة فى الحكم ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل » . وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء ألا ملجأ من الله إلا إليه ، اتجهوا لخزنة جهنم ، يستشفعونهم ليدعوا ربهم فى رجاء يكشف عن شدة البلاء ولو ليوم واحد يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الله تعالى ينجى عباده المؤمنين من كيد أعدائهم إذا أخلصوا دينهم لله ، وأدوا واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٢ ـ إثبات نعيم القبر وعذابه ، ولن يغنى أحد عن أحد شيئا يوم القيامة .

٣ ـ لا يقبل الله تعالى ـ عذراً من الظالمين يوم القيامة وإنما يستحقون اللعنة وأسوأ العذاب .

قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

٤٧٣

معانى الكلمات :

ضلال : بطلان لا نفع فيه .

معذرتهم : اعتذارهم .

اللعنة : الطرد من رحمة الله .

سوء الدار : جهنم .

الكتاب : التوراة .

بالعشى والإبكار : فى المساء والصباح .

سلطان : حجة وبرهان .

ما هم ببالغيه : لن يصلوا إلى ما يقتضيه كيدهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على وعد الله تعالى لرسله وللمؤمنين .

٢ ـ أن نعلم منة الله سبحانه على موسى عليه السلام وعلى بنى إسرائيل .

٣ ـ أن نعرف الدافع إلى جدل المجادلين فى آيات الله الواضحة .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق أن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة ، فهم يعرفون الأصول ويعرفون سنة الله ويعرفون أن الأوان قد فات ، وهم لهذا يزيدون المعذبين عذابا بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب ، فقالت الخزنة : أولم تك تأتيكم رسلكم بالمعجزات والدلائل الواضحات ؟ فقال الكافرون : بلى : قالت الخزنة : فادعوا أنتم لأنفسكم ، فنحن لا ندعو لكم ، ولا نسمع منكم ، ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم براء ، ثم أخبروهم أنه سواء دَعَوا أولم يَدْعوا لا يستجاب لهم ولا يخفف عنهم ، ولهذا قالوا : وما دعاء الكافرين إلا فى ضياع وذهاب لا يقبل ولا يستجاب .

قال صاحب الأساس : « ذكر الله عز وجل ثلاثة أنواع من العذاب يسلطه على الكافرين به وبرسله : عذاب الدنيا، وعذاب البرزخ فى القبر ، وعذاب النار ، وبعد أن ذكر الله سبحانه أنواع

العذاب هذه بيّن أن ذلك كله إنما يفعله نصرة لرسله وللمؤمنين ، فقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كما نصر موسى ومؤمن آل فرعون بإغراق فرعون ، وبنصرهم فى الآخرة يوم يقوم الأشهاد وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكافرين بالتكذيب ، وفى هذا اليوم لا ينفع الظالمين معذرتهم إذا أذن لهم فى الاعتذار لا تقبل معذرتهم ، ولهم اللعنة والبعد من رحمة الله ، ولهم سوء دار الآخرة وهو أشد عذابها .

يقول صاحب الظلال : « إن وعد الله قاطع جازم : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ، ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطروداً ، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يلقى فى الأخدود ، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش فى كرب وشدة واضطهاد ، فأين وعد الله لهم بالنصر فى الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ويفعل بها الأفاعيل ! .... والناس يقصرون معنى النصر على صورة معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم ، ولكن صور النصر شتى، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة ، إبراهيم عليه السلام وهو يلقى فى النار فلا يرجع عن عقيدته ، ولا عن الدعوة إليها .. أكان فى موقف نصر أم فى موقف هزيمة ؟ ما من شك ـ وفى منطق العقيدة ـ أنه كان فى قمة النصر وهو يلقى فى النار ، كما انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار ، هذه صورة وتلك صورة ، وهما فى الظاهر بعيد من بعيد ...

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده ، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعانى الكبيرة ، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة ، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التى يكتبها بدمها ، فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد ، وربما كانت حافزاً محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال . ما النصر ؟ وما الهزيمة ؟ إننا فى حاجة إلى تراجع ما استقر فى تقديرنا من الصور ومن القيم ، قبل أن نسأله أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر فى الحياة الدنيا .

إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا ، ولابد أن توجد حقيقة الإيمان فى القلوب التى ينطبق هذا الوعد عليها ....إن هنالك أشكالًا من الشرك خفية ؛ لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده ، ويتوكل عليه وحده ، ويطمئن إلى قضاء الله فيه وقدره عليه ، ويحس أن الله وحده هو الذى يصرفه فلا خيرة له إلا ما اختار الله ، ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضا والقبول ، وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدى الله ، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير ، فسيكل هذا كله لله ، ويلتزم ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير ، وذلك معنى من معانى النصر .. النصر على الذات والشهوات، وهو النصر الداخلى الذى لا يتم نصر خارجى بدونه بحال من الأحوال » .

ويأتى التعبير عن نموذج من نماذج نصر الله فى قصة موسى ؛ إيتاء الكتاب والهدى ، ووراثة الكتاب والهدى ليكون هناك تذكر للخير بالترغيب فيه ، وعن الشر بالترهيب عنه ، ليس ذلك لكل أحد ، وإنما هو لأولى الألباب .

ويأتى التوجيه لرسول الله ﷺ ومن كانوا معه من المؤمنين فى مكة فى موقف الشدة والمعاناة ، ولكل من يأتى بعدهم من أمته بالصبر، الصبر على التكذيب ، والصبر على الأذى ، والصبر على نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان فى فترة من الزمان ، والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك ، والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها فى النصر القريب ، وما يتعلق به من رغائب وآمال ، والصبر على أشياء كثيرة فى الطريق قد تجىء من جانب الأصدقاء قبل أن تجىء من جانب الأعداء ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ مهما يطل الأمد ، ومهما تتعقد الأمور ، ومهما تتقلب الأسباب ، إنه وعد من يملك التحقيق ، وفى الطريق خذ زاد الطريق الاستغفار المصحوب بالتسبيح وهو فى ذاته تربية للنفس وتطهير للقلب وهذه هى صورة النصر فى القلب وفى هذا تهييج للأمة على الاستغفار والتسبيح بحمد الله فى الليل والنهار والإدامة على عبادة الله .

ثم يقرر السياق أن الجدال فى آيات الله أثر عن الكبر الذى يستهدف أصحابه الجاه والعظمة والرياسة وإذ تحددت الأسباب النفسية والقلبية للجدال فى آيات الله ، وتبينت مظاهر ذلك وأهداف أصحابه ، فإن الموقف المكافئ لذلك هو الصبر والاستغفار والتسبيح بحمد الله والاستعاذة بالله ، وإذا كان الصبر مستحيل الوجود إلا إذا كان هناك إيمان باليوم الآخر ، وإذا كان الاستغفار والتسبيح والاستعاذة أثراً عن معرفة الله عز وجل ، فإن السياق يتجه للحديث عن اليوم الآخر ، ويتجه ليعرفنا على الله عز وجل .

قال ابن كثير : « يقول الله تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة ، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقها أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى » ، ورؤية هذه المعانى تدل على بصيرة القلب ، وعدم رؤيتها يدل على العمى ، والإيمان بها ينبع عنه العمل الصالح ، وعدم الإيمان ينبع عنه العمل السيئ ، كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا ، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره ، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ، وما أقل ما يتذكر كثير من الناس .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ مما يعين المؤمن على تحمل مشقات الحياة أن يكثر من الاستغفار والتسبيح بحمد الله ، فيكون له النصر فى الدنيا والآخرة .

٢ ـ وجوب الصبر والتحمل فى ذات الله .

٣ ـ الكبر يورد المهالك ويبعد عن طريق الصواب

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ
إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا
فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ
اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ
﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ
﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ
بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ
إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ
الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾
٤٧٤

معانى الكلمات :

لا ريب : لا شك .

والنهار مبصرا : النهار سبب فى الإبصار بضوئه .

تؤفكون : تصرفُون .

يجحدون : ينكرون .

قرارا : مستقرا .

بناء : سقفا مرفوعا .

وصوركم : وخلقكم .

تبارك : تعالى وتمجد وكثر خيره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم قرب الساعة وحتمها وفضل الدعاء .

٢ ـ أن نتعرف على بعض الآيات الكونية التى يغفل عنها الناس .

٣ ـ أن نعلم مظاهر قدرة الله فى الخلق والإيجاد ، والإرزاق والإحياء والإماتة .

المحتوى التربوى :

قرر السياق أن الساعة التى كذب بها المكذبون ليستمروا على الباطل والشر فعلا واعتقاداً ، لآتيه حتما ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بها لوجود صارف قوى وهو عدم تذكرهم ، وانكبابهم على قضاء شهواتهم .

قال الفخر الرازى : « اعلم أنه تعالى لما بين أن القول بالقيامة حق وصدق ، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع فى يوم القيامة إلا بطاعة الله تعالى ، لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات ، ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع ، لا جرم أمر الله تعالى به » .

وهذا من فضله ـ تبارك وتعالى ـ وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفل لهم بالإجابة ، كما كان يقول سفيان الثورى : يا من أحبُّ عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله ، وليس أحد كذلك غيرك يارب .

يقول صاحب الظلال : « وللدعاء أدب لا بد أن يراعى إنه إخلاص القلب لله ، والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها ، أو تخصيص وقت أو ظرف ، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال ، والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله والاستجابة فضل آخر ، وقد كان عمر ﷺ يقول : أنا لا أحمل هم الإجابة إنما أحمل هم الدعاء،فإذا ألهمت الدعاء كان الإجابة معه ، وهى كلمة القلب العارف ، الذى يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء ، فهما حين يوفق الله متوافقان متطابقان .

فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم ، وهذه نهاية الكبر الذى تتفتح به قلوب وصدور فى هذه الأرض الصغيرة ، وفى هذه الحياة الرخيصة ، وتنسى ضخامة خلق الله فضلا على نسيانها عظمة الله ، ونسيانها للآخرة وهى آتية لا ريب فيها ، ونسيانها للموقف الذليل فى الآخرة بعد النفخة والاستكبار .

ولما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله ، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس ، تلك النعم التى توحى بعظمته تعالى، والتى لا يشكرون الله عليها ، بل يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه ، والليل والنهار ظاهرتان كونيتان والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك ، وهى تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم ، ومع رزق الله لهم من الطيبات ، وتعرض كلها فى معرض نعم الله وفضله على الناس ، وفى معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله ، فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعانى ، وعلى وجود الصلة بينها ، ووجوب تدبرها فى محيطها الواسع ، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق .

ويذكر السياق أنه من أجلكم جعل الله الليل مظلما ؛ لتسكنوا فيه من حركاتكم ، والتى لو استمرت لضرت فتأوون إلى فرشكم ، ويلقى الله عليكم النوم الذى يستريح به القلب والبدن ، وهو من ضروريات الآدمى لا يعيش بدونه، ويسكن أيضا كل حبيب إلى حبيبه ، ويجتمع الفكر ، وتقل الشواغل ، وجعل تعالى النهار منيراً بالشمس المستمرة فى الفلك ، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية ، هذا لذكره وقراءته ، وهذا لصلاته وهذا لطلب العلم ودراسته وهذا لبيعه وشرائه ، وهذا لبنائه أو حدادته أو نحوها من الصناعات وهذا لسفره براً وبحراً ، وهذا لفلاحته ، وهذا لتصليح حيواناته ، والله ذو فضل عظيم على الناس حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها ، وصرف عنهم النقم ، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون بسبب جهلهم وظلمهم .

ويشير السياق إلى أن الذى خلق الليل والنهار هو الله ربكم المنفرد بالإلهية،والمتفرد بالربوبية؛ لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته ، وإيجابها للشكر من ألوهيته ، ويقرر السياق أنه سبحانه لا رب غير ولا إله سواه ، فهو الجامع لأوصاف الربوبية والإلهية والوحدانية ، فكيف تعبدون غيره

من الأصنام التى لا تخلق شيئا بل هى مخلوقة منحوتة ، وكل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ، ولم يطلب الحق .

أفك كما أفكوا ، وكما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والهوى وجحدوا حجج الله وآياته .

وينتقل السياق من ظاهرتى الليل والنهار إلى تصميم الأرض لتكون قراراً ، والسماء لتكون بناءً ، والأرض قرار صالح لحياة الإنسان ، والسماء بناء ثابت النسب والأبعاد والحركات والدورات ، ومن ثم تضمن الاستقرار والثبات لحياة هذا الإنسان المحسوب حسابها فى تصميم هذا الوجود المقدرة فى بنائه تقديراً ، ويربط بتكوين السماء والأرض تكوين الإنسان ورزقه من الطيبات ، وأنه خلقه فأحسن خلقته .

ولو رحنا نبحث دقة التكوين الإنسانى وتناسق أجزائه ووظائفه ـ بوصفها داخلة فى قوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ـ لوقفنا أمام كل عضو صغير ، بل أمام كل خلية مفردة فى هذا الكيان الدقيق العجيب، وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط ليعيش فيه ويتأثر به، ويؤثر فيه ، وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان ، وتصوير الإنسان على هذه الصورة ذو علاقة بوسطة أى بالأرض والسماء ، ومن ثم يذكر القرآن صورته فى نفس الآية التى يذكر فيها الأرض والسماء .

ويذكر أنه سبحانه خلق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق ، والذى دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم لله ربكم ، تعاظم وكثر خيره وإحسانه ، المربى جميع العالمين بنعمه ، وهو الحى الذى له الحياة الكاملة التامة ، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية التى لا تتم حياته إلا بها كالسمع والبصر والقدرة ، والعلم والكلام وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله ، فلا معبود بحق إلا وجهه الكريم فاعبدوه مخلصين له الطاعة من الشرك والرياء مع التوحيد الخالص ، جامعين بين العبادة والشكر والتحميد .

وأمام هذه الآيات والهبات ، وما تلاها من تعقبات ، وفى أشد اللحظات امتلاء بحقيقة الوحدانية ، وحقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية ، يجىء التلقين لرسول الله ﷺ ليعلن للقوم أنه منهى عن عبادة ما يدعون من دون الله من الأوثان والأنداد،وأنه على يقين بما آتاه ربه من القرآن، وأنه مأمور بالإسلام لله رب العالمين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدعاء هو العبادة فلنكثر من الدعاء لله رب العالمين .

٢ ـ من شروط الدعاء المستجاب أن يكون القلب متعلقا بالله معرضا عما سواه ، وألا يسأل ما فيه إثم .

٣ ـ وجوب العبادة لله وحده ولا ننظر إلى أى شىء سواه ، فحقه أن نتوجه إليه بالكلية .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟
شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا
قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ
مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ
نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَإِمَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾
٤٧٥

معانى الكلمات :

خلقكم من تراب : أوجد أصلكم من تراب .

نطفة : المنى .

علقة : الدم الغليظ .

الأغلال: القيود تجمع الأيدى إلى الرقاب .

الحميم : الماء الذى بلغ نهاية الحرارة .

يسجرون : تحيط بهم النار وتملأ أجوافهم .

ضلوا عنا : غابوا عنا .

تمرحون : تتوسعون فى الفرح والزهو .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أطوار خلق الإنسان ومراحل حياته .

٢ ـ أن نعلم حال المجادلين فى آيات الله يوم القيامة .

٣ ـ أن نعرف جزاء المتكبرين الذين يمنعهم الكبر من الاعتراف بالحق .

المحتوى التربوى :

يستعرض السياق آية من آيات الله فى أنفسهم بعدما استعرض آياته فى الآفاق ، هى آية الحياة الإنسانية وأطوارها العجيبة،وليتخذ من هذه الحياة مقدمة لتقرير حقيقة الحياة كلها بين يدى الله، وهذه النشأة الإنسانية فيها مالم يدركه علم الإنسان ؛ لأنه كان قبل وجود الإنسان ، وفيها ما يشاهده ويراقبه ، ولكن هذا إنما تم حديثا بعد نزول هذا القرآن بقرون ، فالتراب أصل الحياة كلها على وجه هذه الأرض ومنها الحياة الإنسانية ، ولا يعلم إلا الله كيف تمت هذه الخارقة ، وأما تكاثر الإنسان بعد ذلك عن طريق التزاوج فيتم عن طريق التقاء خلية التذكير وهى النطفة بالبويضة واتحادهما واستقرارهما فى الرحم فى صورة علقة . وفى نهاية المرحلة الجنينية يخرج الطفل بعد عدة تطورات كبرى فى طبيعة الخلية الأولى ، تعد إذا نحن نظرنا إليها بتدبر أطول وأكبر من

الأطوار التى يمر بها الطفل من ولادته إلى أن ينتهى أجله ، والتى يقف السياق عند بعض مراحلها البارزة : مرحلة الطفولة ثم بلوغ الأشدِ حوالى الأربعين ، ثم الشيخوخة ، وهى المراحل التى تمثل أقصى القوة بين طرفين من الضعف ، ومنكم من يتوفى من قبل أن يبلغ هذه المراحل جميعا أو بعضها ، ولتبلغوا أجلا مسمى مقدراً معلوما لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ، ولعلكم تعقلون ما فى رحلة الجنين ورحلة الوليد وحسن الخلق والتقدير من العبرة .

وهو يعقب عليها بعرض حقيقة الإحياء والإماتة وحقيقة الخلق والإنشاء جميعا ، وتكثر الإشارة فى القرآن إلى آياتى الحياة والموت ؛ لأنها تلمسان قلب الإنسان بشدة وعمق ، ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان فى كل ما يقع عليه حس الإنسان ، ومن الحياة والموت إلى حقيقة الإنساء وأداة الإبداع ، وأن هى إلا الإرادة يتمثل اتجاهها إلى الخلق ، خلق أى شىء فى كلمة ﴿كُن﴾ فإذا الوجود ينبثق على إثرها ﴿فَيَكُونُ﴾ فتبارك الله أحسن الخالقين .

وأمام نشأة الحياة البشرية ، وفى ظل مشهد الحياة والموت ، وحقيقة الإنشاء والإبداع .. يبدو الجدال فى آيات الله مستغربا مستنكرا، ويبدو التكذيب بالرسل عجيبا ، ومن ثم يواجهه بالتهديد المخيف فى صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة ، فيقول سبحانه : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ويجادلون بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ، فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذى جاءهم من الله ، وبما أرسل الله به رسله ، الذين هم خير الخلق وأصدقهم ، وأعظمهم عقولا ، فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية ،ولهذا توعدهم الله بعذابها بوعيد أكيد وعذاب شديد من الرب جل جلاله .

ثم بين أن هذا العلم سيكون إذ الأغلال والسلاسل فى أعناقهم تسحبهم بها الزبانية على وجوههم تارة إلى الحميم ، وهو : الماء الحار ، وتارة إلى الجحيم ، وهو : النار فتكون محيطة بهم مملوءة بها أجوافهم ، ثم قيل لهم على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير ، والتهكم والاستهزاء بهم ، والقائل هم خزنة جهنم : أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله ، قالوا : ذهبوا عنا فلم ينفعونا ، أو غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم ، وتبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا ، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئا ، وقد يكون المراد جحودهم لعبادة غير الله كذبا منهم ، كعادتهم الكذب فى الدنيا ، وكذلك يضل الكافرين مثل ضلال آلهتهم عنهم فى الآخرة ، يضلهم الله عن الحق فى الدنيا ، بجدالهم فى آيات الله ، أو كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلال على الدين الحق ، ذلكم العذاب الذى نزل بكم ، بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق وهو الشرك ، وعبادة الأوثان .

قال ابن كثير : « تقول لهم الملائكة : هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق ، ومرحكم وأشركم وبطركم .. فبئس المنزل والمقيل الذى فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله ، واتباع دلائله وحججه » .

فعن الكبر نشأت هذه المهانة وجزاء على الكبر كان هذا التحقير وأمام هذا المشهد ـ مشهد الذل والمهانة ، والعذاب الرعيب ، وعاقبة الجدال فى آيات الله ، والكبر النافخ فى الصدور ـ يتجه السياق إلى رسول الله ﷺ يوصيه بالصبر على ما يجده من كبر ومن جدال ، والثقة بوعد الله الحق على كل حال ، سواء أراه الله بعض الذى يعدهم فى حياته ، أو قبضته إليه وتولى الأمر عنه ، فالقضية كلها راجعة إلى الله ، وليس على الرسول إلا البلاغ ، وهم إليه راجعون .

يقول صاحب الظلال : « وهنا نقف أمام لفتة تستحق التدبر العميق ، إن هذا الرسول الذى يلاقى ما يلاقى من الأذى والتكذيب والكبر والكنود يقال له ما مفهومه:أدِّ واجبك وقف عنده، فأما النتائج فليست من أمرك حتى شفا صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه ، إنه يعمل وكفى ، يؤدى واجبه ويمضى ، فالأمر ليس أمره ، والقضية ليست قضيته .

إن الأمر كله لله ، والله يفعل به ما يريد .

يالله ، يا للمرتقى العالى ، ويا للأدب الكامل الذى يأخذ به أصحاب هذه الدعوة فى شخص رسوله الكريم ، وإنه لأمر شاق على النفس البشرية ، أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشرى العنيفة ، لعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر فى هذا الموضع من السورة ، فلم يكن هذا تكرارًا للأمر الذى سيق فيها ، إنما كان توجيها إلى صبر من لون جديد ، ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب ؟ !

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة فى أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوته ، بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء أمر شديد على النفس صعيب ، ولكنه الأدب الإلهى العالى ، والإعداد الإلهى لأصفيائه المختارين ، وتخليص النفس المختارة من كل شىء لها فيه أرب ، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ التأمل فى الأنفس يوجب الإيمان بالواحد الأحد سبحانه .

٢ ـ ذم الفرح بغير فضل الله ورحمته والمرح وهو أشد من الفرح ، وذم التكبر وأهله .

٣- وجوب الصبر على دعوة الحق ، وعلى الإنسان أن يجد ويجتهد فى عمله وفى عبادة ربه ، تاركا النتيجة والثمرة لله مع الثقة فى فضله ـ تعالى ـ وعدله ورحمته .

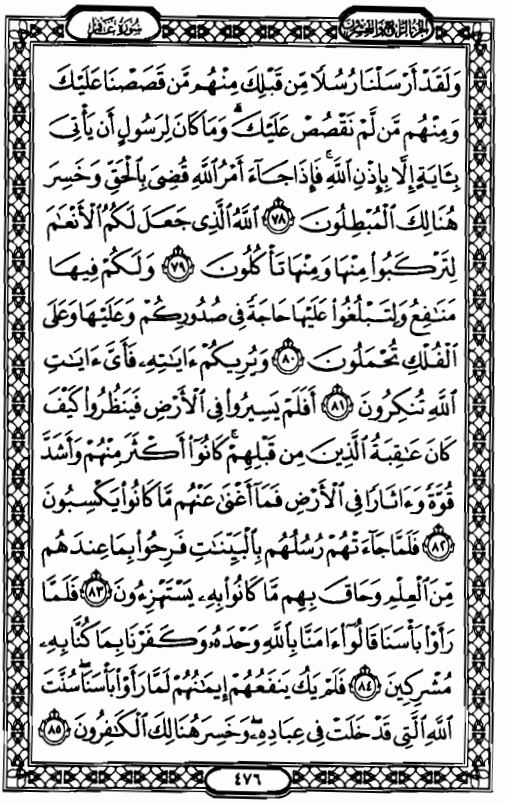
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ۖ فَأَيَّ آيَاتِ
اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم
مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾
٤٧٦

معانى الكلمات :

آية : معجزة .

خسر هنالك المبطلون : هلك المعاندون الكافرون .

وآثاراً فى الأرض : عمرانا لا تزال آثارها باقية .

بالبينات : بالمعجزات الظاهرات .

وحاق : ونزل وأحاط .

بأسنا : شدة العذاب فى الدنيا .

سنة الله : حكم الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم منة الله ـ تعالى على الناس فى الأنعام .

٢ ـ أن نعرف مشروعية السير فى البلاد للعظة والاعتبار تقوية للإيمان .

٣ ـ أن نتعرف على أن سنن الله لا تتخلف وأن آيات القدرة شاهدة على ذلك .

المحتوى التربوى :

يستكمل السياق توجيه الرسول ﷺ والمؤمنين إلى الصبر حتى يأذن الله ، ويتحقق وعده ووعيده ، سواء تحقق هذا فى حياته ﷺ أم استأخر بعد وفاته ، فالأمر ليس أمره إنما هو أمر هذه العقيدة والمؤمنين بها والمجادلين فيها المستكبرين عنها ، والحكم فى هذا الأمر هو الله وهو الذى يقود حركتها ويوجه خطواتها كما يشاء ، ويستطرد السياق فى عرض جوانب أخر من إن قصة أمر الرسالة قصة طويلة وقديمة ، ولم تبدأ برسالة الإسلام ورسوله ﷺ فقبله كانت رسل، قص الله بعضهم عليه وبعضهم لم يقصصهم عليه، وكلهم ووجهوا بالتكذيب والاستكبار وكلهم طولب بالآيات والخوارق ، ولكن ما من آية إلا بإذن الله فى الوقت الذى يريده الله فهى دعوته ، وهو يصرفها كيف يشاء .

يقول صاحب الظلال : « فالنفس البشرية ـ لو كانت نفس رسول ـ تتمنى وترغب أن تستعلى الدعوة وأن يذعن لها المكابرون سريعا ، فتتطلع إلى ظهور الآية الخارقة التى تقهر كل مكابرة ، ولكن الله يريد أن يلوذ عباده المختارون بالصبر المطلق ، ويروضوا أنفسهم عليه ، فيبين لهم أن ليس لهم من الأمر شىء ، وأن وظيفتهم تنتهى عند البلاغ ، وأن مجىء الآية هو الذى يتولاه حينما يريد لتطمئن قلوبهم وتهدأ وتستقر ، ويرضوا بكل ما يتم على أيديهم ويدعوا الأمر كله بعد ذلك لله .

ويريد كذلك أن يدرك الناس طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة ، ويعرفوا أن الرسل بشر منهم ، اختارهم الله ،وحدد لهم وظيفتهم، وما هم بقادرين ولا محاولين أن يجاوزوا حدود هذه الوظيفة، كذلك ليعلم الناس أن تأخير الآيات رحمة بهم ، فقد قضى فى تقديره بأن يدمر على المكذبين بعد ظهور الآيات ، وإذن فهى مهلة وهى من الله رحمة .. ولم يعد هناك مجال لعمل ولا لتوبة ولا لرجعة بعد قضاء الله الأخير » .

ثم يوجه السياق طلاب الخوارق إلى الآيات الحاضرة التى ينسون وجودها بطول الألفة ، وهى لو تدبروا بعض هذه الخوارق التى يطلبون ، وهى شاهدة كذلك بالألوهية ؛ لبطلان أى دعاء بأن أحداً غير الله خلقها ، وأى ادعاء كذلك بأنها خلقت بلا خالق مدبر مريد ، فالله عز وجل خلق لكم الأنعام من البقر والإبل والغنم والماعز ؛ لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها ، ولكم منافع فى ألبانها وأوبارها وجمالها وغير ذلك ، ولتبلغوا عليها ما تحتاجون إليه من الأمور ، وعلى الأنعام وعلى الفلك تحملون تفضلا من الله ونعمة .

قال ابن كثير : « فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ويحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة » .

والله ـ تعالى ـ يريكم حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم ، وأنتم لا تقدرون على إنكار شىء من آياته ، فكيف تقترحون الآيات وهى مبثوثة أمامكم ، وكيف لا تؤمنون والآيات مرئية مشاهدة ، ولماذا تجادلون وتعاندون وتكابرون والأمر أوضح من كل واضح ، أفلم يسير هؤلاء الكافرون المعاندون المجادلون فى الأرض ، فينظروا كيف كان نهاية الذين من قبلهم من الأمم ، كانوا أكثر منهم عددا وأشد قوة فى أبدانهم ، وآثاراً خلفوها فى الأرض، والظاهر أن الخطاب لقريش المخاطبين الأوائل .

يقول صاحب الظلال : « ومصارع الغابرين كثيرة فى تاريخ البشرية ، وبعضها ما تزال له آثار تحكي ، وبعضها حفظته الروايات على الألسنة ، أو حفظته الأوراق والكتب ، والقرآن كثيرًا ما

يوجه القلوب إليها ، لما فيها من دلالة على حقائق ثابتة فى خط سير البشرية ، ولما لها كذلك من أثر فى النفس الإنسانية عميق عنيف ، والقرآن يخاطب الفطرة بما يعلمه منزل هذا القرآن من حقيقة الفطرة ، ومساربها ومداخلها ، وأبوابها التى تطرق فتفتح ، بعضها بعد نقرة خفيفة ، وبعضها بعد طرقات كثيرة إن كان قد ران عليها ركام » .

وهنا يسألهم وينشطهم للسير فى الأرض بعين مفتوحة ، وحس متوفز ، وقلب بصير لينظروا ويتدبروا ما كان فى الأرض قبلهم ، وما يتعرضون هم لجريانه عليهم .

قال الفخر الرازى رحمه الله : « اعلم أنه تعالى راعى ترتيبا لطيفا فى آخر هذه السورة ، وذلك أنه ذكر فصلا فى دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ، ثم أردفه بفصل فى التهديد والوعيد ، وهذا الفصل الذى وقع ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد ، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون فى آيات الله ، وحصل الكبر العظيم فى صدورهم بهذا ، والسبب فى ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير فى المال والجاه ، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا ، فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة ؛ لأن الدنيا فانية ذاهبة ـ فلو ساروا فى أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين ليست إلا الهلاك والبوار ، مع أنهم كانوا أكثر عدداً ومالا وجاها من هؤلاء المتأخرين » .

توافرت لهم الكثرة والقوة والعمران ولم تعصمهم قوة ولا كثرة ولا عمارة مما كانوا يعتزون به ويغترون ، بل كان هذا هو أصل شقائهم وسبب هلاكهم ، والعلم ـ بغير إيمان ـ فتنة ، فتنة تعمى وتطغى ، ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهرى يوحى بالغرور ، فيتجاوز صاحبه بنفسه قدرها ومكانها ، وهؤلاء فرحوا بما عندهم من العلم ، واستهزؤوا بمن يذكرهم بما وراءه ، فلما عاينوا بأس الله ، سقط عنهم القناع وأدركوا مدى الغرور واعترفوا بما كانوا ينكرون وأقروا بوحدانية الله كفروا بشركائهم من دونه ، ولكن الأوان كان قد فات ، وسنة الله قد جرت على ألا تقبل توبة بعد ظهور بأس الله ، فهى توبة الفزع لا توبة الإيمان ، وسنة الله ثابتة لا تضطرب ولا تتخلف ولا تحيد عن الطريق ، وعلى هذا المشهد العنيف ، مشهد بأس الله يأخذ المكذبين ، ومشهدهم يستغيثون ويفزعون ، ويعلنون كلمة الإذعان والتسليم تختم السورة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا يقبل الله تعالى ـ التوبة من الذين ينتظرون حتى ساعة الموت .

٢ ـ ما ذكر فى القرآن من قصص الرسل قليل من كثير للعظة والاعتبار والإنذار .

٣ ـ سنن الله تعالى ـ لا تتخلف ومظاهر قدرته تعالى كثيرة واضحة ، فليطمئن المؤمن إلى جنب الله .